الإمامة بين ضَرورتَي الحُضور والاحْتِجاب

نقدٌ معرفيّ قرآني

◆ حسين إبراهيم شمس الدين[1]

■ **خلاصة**

يُعتبر بحث الإمامة في الفكر الإسلامي عمومًا من المباحث الدقيقة، والتي تدخل في تشكيل الهوية الإسلامية الاجتماعية والعقدية، ولكن لم تكن هذه المسألة محلّ اتِّفاق عند الفرق الإسلامية المختلفة، بل نجد أنّ المذهب الإمامي قد طرحها انطلاقًا من رؤية وجودية أنطولوجية مرتبطة بالتوحيد وخلق العالم وغايته، بحيث نجد أنّ قضية وجود الإمام مرتبطة بالرؤية حول الإنسان الكامل، وليست فقط مسألة قيادة أو رئاسة عامة، كما نجدها عند بعض المذاهب الأخرى.

هذه المسألة، انعكست بشكل جليٍّ على قضية حضور الإمام وغَيبته، فلم تكن الغَيبة في قوة عدم وجود الإمام، وذلك لأنّ غاية وجوده غير مُقتصرة على مُجرد حضوره، وإنْ كان الحضور هو التجلّي الأكبر لفاعلية الإمام ووجوده، ولكن غَيبته واحتجابه عن الناس، غير مُنافٍ لضرورة وُجوده في عالم التّكوين..

الكلمات المفتاحية: الإمامة - الحضور - الغيبة - الإنسان الكامل..

1 - طالب دكتوراه في علم الاجتماع ومختص في الفلسفة - الحوزة العلمية/ قُم - إيران.

مقدمة

يُشكّل البحث عن المنظومة الفكرية الإسلامية، تحديًّا فكريًّا لأي باحث يريد بيان جزئية أو تفصيلاً معينًّا ضمن هذه المنظومة، وذلك لما يتميّز به البناء الفكري في الإسلام والفكر الإسلامي من عناصر متشابكة ومُتعاضدة فيما بينها، بحيث يمُكن وصف هذا الفكر، بأنّه شبكة ترفد بعضها بعضًا، ولا مجال للتهافت الداخلي بين العناصر، وإلا سيكون علامة على عدم إدراك الواقعية الحقيقية لهذه المنظومة.

بعبارة أخرى، إن منظومة الأفكار الإسلامية هي منظومة منسجمة فيما بينها، فالفكر العقائدي فيها لا بدّ أن يكون منسجمًا مع الفكر القيمي والسلوكي، والعكس بالعكس، وهذا ما نجده حاضرًا عند دراسة أي جزئية من جزئيات الفكر.

ومثال ذلك، أننا لو أردنا أن نبحث حول قضية الإمامة مثلاً، والتي تُعدّ من أمّهات الأفكار في الفكر الإسلامي – لا سيّما الفكر الإمامي الاثني عشري- فإننا لا يُمكن أن نبحث عن هذه القضية من منظار التاريخ فقط، بحيث يلجأ الباحث إلى رصد الوثائق والكتب التاريخية لتحديد موضوع الإمامة طبق مسار التاريخ، بل لا بدّ من الرجوع إلى المباني العقائدية والحكمية التي تحكّم علينا معرفة مواصفات الإمام، طبق الرؤية الكونية النابعة من أصل التوحيد والربوبية الإلهية، فالعقيدة ترفد رؤيتنا للتاريخ، كما أنّ التاريخ لا يملك في نفسه معيار القيمة والحق، إلا بالعرض على الأصول العقدية والعقلية والنّصيّة الصريحة في القرآن الكريم.

لذلك، يجد الباحث الذي ينطلق من فكر إسلامي، موقفه واضحًا تُجاه القضايا التاريخية، موقف مُدعّم بأصول وافتراضات مُسبقة هي التي تحكم تقييمه لأحداث الحاضر والماضي، إذ

الزمان والزمانيات ليست إلا وقائع حدثت في إطار "ما هو كائن"، وتحتاج في تقييمها إلى دعامة "ما ينبغي أن يكون"، قبل إصدار الأحكام القِيمية عليها.

من هنا، يمُكن القول: إنّ قضية الإمامة – التي هي محل البحث- قضية لا بدّ قبل الخوض في البحث التاريخي فيها من تقديم مادة نظرية وعقدية حاكمة عليها في البحث التاريخي، وهذا هو إنصاف الباحث الإسلامي، وما يقتضيه الانطلاق من الرؤية الكونية الإسلامية عند البحث التاريخي، وأما لو افترضنا وجود شخص لا ينتمي إلى الفكر الإسلامي بالأساس – كبعض المستشرقين مثلاً-، فإنّ غاية ما يمُكن أن يقدمه هو عرض تحليلي وفق منظاره الخاص الواعي أو اللاواعي تجاه القضايا التي استطاع أن يحصل على نتائج من خلال رصدها وتتبعها.

بالنسبة للإمامة، تُعتبر قضية ماهية الإمامة وعلاقتها بالمأمومين من الناس، وعلاقة الناس بها، وما يتفرّع على ذلك من ضرورة حضور الإمام وسط شرائح الناس، أو غيابه عنهم واحتجابه عن التواصل معهم، من القضايا التي لا بدّ من تأصيلها وفق الرؤية القرآنية بشكل أساسي، حتى يمكن للباحث في الفكر الإمامي وضع قضية المهدوية بشكل خاص في سياقها الفكري الإمامي الخاص، وكي لا يتراءى للناظر تهافت عنوان "الإمامة" مع عنوان "الغَيبة والاحتجاب".

إذْ قد يسأل سائل: إنّ الإمامة هي قيادة وحضور وتنفيذ وإدراة اجتماعية، فما معنى "الإمام الغائب" عندئذ؟ وهذه الإشكالية ترجع إلى الرؤية حول فكرة الإمامة وماهيتها، فإذا عرفنا روح الإمامة في الفكر الشيعي، فلن يبقى لهذا السؤال مجال.

أولاً: ماهية الإمامة في القرآن الكريم

قَالَ سُبْحَانَهُ و تَعَالىٰ: ﴿**وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ**﴾[البقرة:124]. تشكّل هذه الآية القرآنية نقطة محورية في فهم الإمامة الإلهية في الفكر الشيعي الإمامي، إذ تشتمل على عناصر عديدة مهمة هي:

العنصر الأول: إنّ الإمامة هبة وعطاء إلهي، وليست بجعلٍ من النّاس، على وفق القيادات

والرئاسات البشرية التي يفوّض فيها الناس أمرًا أو أمورًا من شُؤونهم السياسية أو الاجتماعية لشخص من الأشخاص، ففي قوله تعالى: ﴿**قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا**﴾، إشارة إلى قضية الجعل الإلهي لمنصب الإمامة.

العنصر الثاني: الإمام لا بدّ أن يكون حائزًا على الخصائص النفسانية العالية، وهي التي تكون مشهودة له قبل قيادته أو استلامه للرئاسة العامة، وبعبارة أخرى، إنّ التجربة البشرية في تشخيص الأليق للقيادة، قد تكون نابعة من مشاهدة تجارب القادة والمسؤولين في تجربتهم القيادية نفسها، فالمسؤول إنّما يتمُّ ترفيعه لمستوى أعلى من المسؤولية، بسبب نجاحه السابق في رُتبته الأدنى، أو قد يتمّ تنصيبه في منصب معين بسبب نجاحات أو توسّمات يجدها الناس في شخص يتمتع بحسٍّ قيادي أو إداري ما، وأمّا ما نجده في هذه الآية القرآنية، فهو أمر آخر، مرتبط بالخصائص الخُلقية والنفسانية للإمام، فقوله -تعالى-: ﴿**وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ**﴾، يدل على الابتلاء الإلهي الذي كان له دور في تجوهُر النفس الإبراهيمية على مستويات باطنية وداخلية لا قيادية فقط.

وبحسب تعبير العلامة الطباطبائي: "فقوله: وَ إِذِ ابْتَلى إِبْراهِيمَ رَبُّهُ، الابتلاء والبلاء بمعنى واحد، تقول: ابتليته و بلوته بكذا، أي امتحنته و اختبرته، إذا قدمت إليه أمرًا أو أوقعته في حدث فاختبرته بذلك واستظهرت ما عنده من الصفات النفسانية الكامنة عنده كالإطاعة والشجاعة والسخاء والعفة والعلم والوفاء أو مقابلاتها"[1]، إلى أن قال: "..إذا عرفت ذلك، ظهر لك أن المُراد بقوله تعالى: بِكَلِماتٍ، قضايا ابْتُلي بها، وعُهود إلهية أريدت منه، كابتلائه بالكواكب والأصنام، والنار والهجرة وتضحيته بابنه، وغير ذلك. ولم يُبين في الكلام ما هي الكلمات، لأنّ الغرض غير متعلق بذلك، نعم قوله: قالَ إِنيِّ جاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِماماً، من حيث ترتبه على الكلمات، تدلّ على أنها كانت أمورًا تُثبت بها لياقته عليه السلام لمقام الإمامة"[2].

وما يتفرع على هذا المقام من العصمة مثلاً، يأتي في سياق إثبات الصفات النفسانية الخاصة

1 - الطباطبايى، محمد حسين، الميزان في تفسير القرآن، ج1، ص 268.
2 - الطباطبايى، الميزان في تفسير القرآن، ج1، ص 270.

بالإمام، وبيان ذلك أنّ العصمة قد نبحثها تارة من جهة الغرض والغاية، كأن نقول إنّ الإمام لمّا كان قائدًا للناس على الهداية، فلا بدّ أن يكون مطاعًا وأن يكون هاديًّا لهم، وكونه غير معصوم خلاف الغرض، وينقض الغاية والوظيفة التي لأجلها كان إمامًا.

وبالتالي، لا بدّ من عصمته حتى يتحقق الغرض. لكن تارة أخرى نحلّل حقيقة العصمة لا من حيثية غائية، بل من حيثية ذاتية نفسانية، فنسأل عن حقيقة العصمة في نفس المعصوم والإمام ما هي؟ فيجيب الحكماء أنّ العصمة في الحقيقة هي ملكة نفسانية راسخة ناشئة من العلم والكشف التام الحاصل للإمام أو النبي بالله تعالى وأسمائه وصفاته وبالشريعة ومراسم العبودية، وهذا الذي يكون باعثًا على العصمة، وبيانه أنه "لا شك أنّ الفعل الاختياري إنما هو اختياري بصدوره عن العلم والمشيئة، وإنما يختلف الفعل طاعة ومعصية، باختلاف الصورة العلمية التي يصدر عنها، فإن كان المقصود هو الجري على العبودية بامتثال الأمر مثلا، تحققت الطاعة، و إن كان المطلوب- أعني الصورة العِلمية التي يُضاف إليها المشيئة- اتّباع الهوى واقتراف ما نهى الله عنه، تحقّقت المعصية. فاختلاف أفعالنا طاعة و معصية، لاختلاف عِلمنا الذي يصدر عنه الفعل، و لو دام أحد العِلمين، أعني الحكم بوجوب الجري على العبودية وامتثال الأمر الإلهي، لما صدر إلا الطاعة، ولو دام العلم الآخر الصادر عنه المعصية - والعياذ بالله - لم يتحقق إلا المعصية، وعلى هذا، فصدور الأفعال عن النبيﷺ، بوصف الطاعة دائمًا، ليس إلا لأنّ العلم الذي يصدر عنه فعله بالمشيئة صورة علمية صالحة غير متغيرة، وهو الإذعان بوجوب العبودية دائمًا، ومن المعلوم أنّ الصورة العلمية والهيئة النفسانية الراسخة غير الزائلة، هي الملكة النفسانية، كملكة العفة والشجاعة والعدالة ونحوها، ففي النبي ملكة نفسانية تصدر عنها أفعاله على الطاعة والانقياد، وهي القوة الرادعة عن المعصية"[1].

وخلاصة القول: إنّ التصوّر الإمامي عن الإمامة، هو تصوّر ناظر لشخصية الإمام قبل وظيفته الاجتماعية والسياسية والقيادية، فهو إمام في نفسه ولأجل خصائصه التي وهبها الله تعالى له، لا لمجرد كونه حاضرًا وقائدًا بالفعل، بل إنه صار قائدًا لأجل هذه الخصائص النفسانية.

1 - الطباطبايى، الميزان في تفسير القرآن، ج 2، ص: 138 – 139 .

ثانيًا: الإمام الإنسان الكامل وليس الحاضر القائد فقط

النقطة الأساسية التي نخرج بها من البحث السابق، أن الإمامة ليست مجرّد رئاسة عامة في الفكر الكلامي والعقائدي الإمامي، بل هي تعبير عن شخصية الإنسان الكامل الذي يمتلك المؤهلات والموهبات الإلهية، والتي من أجلها استحق مقام الرئاسة العامة وولاية الأمر، وبالتّالي، فإنّ الكلام عن ضرورة الإمام وفق هذا السياق، ليس كلامًا متفرّعًا فقط على ضرورة الحضور القيادي له، بل هي ضرورة تكوينية نابعة من هندسة الوجود وفق العناية الإلهية الأزلية التي اقتضت وجود الإنسان الكامل في كل زمان ومكان.

وبيان ذلك بوجه آخر، وفق الفكر الكلامي القرآني الذي يتبناه الإمامية حول قضية الإمامة، لا ينبع فقط من ضرورة الرئاسة والقيادة العامة، بل ينظرون إلى القضية من باب أنّ الله سبحانه وتعالى عندما خلق الخلق وأفاض الوجود الإمكاني لم يمكن ذلك على وجه مُبعثر ومُشتّت، بل كان وجهًا حكيمًا يُراعى فيه ترتيب الأشرف فالأشرف.

وبالتّالي، فإنّ وجود الإنسان الكامل في حياة البشر هو من مقتضيات الخِلقة، في كل زمان، بحيث لا يمكن أن يخلو منه زمان أصلاً، وهذا مفاد الكثير من الروايات حول ضرورة الحجة، وقد أشار صدر المتألهين الشيرازي إلى هذه الحقيقة، حيث قال: أنّ الآيات والروايات تدل على " عدم خلوّ الزمان عمّن يقوم به حجة اللّه على خلقه، إذ علم أنه بهذا جرت سنّة اللّه من لدن آدم و نوح و آل إبراهيم إلى وقت نبيّنا - صلوات اللّه عليهم أجمعين - ولن تجد لسنّة اللّه تبديلا، لكن النبوة قد ختمت برسولنا ﷺ، والولاية التي هي باطن النبوة باقية إلى يوم القيمة، فلا بدّ في كل زمان - بعد زمان الرسالة - من وجود وليّ يعبد اللّه على الشهود الكشفي من غير تعلّم، و يكون عنده مأخذ علوم العلماء و المجتهدين، وله الرئاسة العامة في أمر الدين والدنيا، وهو الداعي للخلق بحسب الفطرة من قبل اللّه، سواء أطاعته الرعية أو لا، والناس أجابوه أو أنكروه، و سواء كان ظاهرًا مشهورًا، أو مستترًا مغمورًا - كأكثر الأئمة الطاهرين سلام اللّه عليهم أجمعين -"[1].

1 - الشيرازي، تفسير القرآن الكريم، ج 6، ص 298.

وإذا أردنا أن نسلك مسلكًا قرآنيًا حول هذه المسألة، فإنّ مفسرينا - بالاعتماد على إشارات من روايات أهل البيت ﷺ - قد أثبتوا هذا الأمر من خلال عدّة آيات، لا سيما سورة القدر المباركة، حيث تُشير إلى أنّ ليلة القدر التي تتنزّل فيها الملائكة في شهر رمضان من كل سنة، ليست محصورة في زمن النبي، بل هي مستمرة في كل الأزمان والسنوات، ففي كل سنة ليلة قدر تتنزل فيها الملائكة، وتنزّل الملائكة لا يكون إلى بوجود قابل بشري إنساني تتنزّل عليه الملائكة "من كل أمر"، لأنّ تنزُّل الملائكة روحاني معنوي ولا يكون هذا التنزّل إلا إلى متنزّل عليه يُسانخها.

وبالتالي، فتنزل الملائكة والروح يقتضي وجود قلب روحاني كامل يُسانخها، كقلب رسول الله ﷺ الذي كانت تتنزل عليه الملائكة والروح في ليلة القدر في عصره، وهذا القلب المستمر في كل الأزمنة ليس إلاّ قلب الإنسان الكامل والإمام المعصوم ﷺ، "إذن فليلة القدر مستمرة [...] ليلة القدر تعني ليلة الإنسان الكامل، ليلة الولي الكامل، [...] يقول سُبْحَانَهُ: ﴿**تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ**﴾[القدر:4]، أي إنّ الملائكة والروح ينزلون بأمر من ربهم إلى الأرض، فهي ليلة لم ينقطع فيها الارتباط بين السماء والأرض، إنها ليلة الارتباط بين السماء والأرض [...] يقول الأئمة عليهم السلام إسألوا هؤلاء، عندما تنزل الملائكة والروح ليلة القدر، إلى أين تنزل؟ هل تنزل إلى الأرض أم أنها تنزل على القلب؟ إن الملائكة تنزل على الإنسان، على قلبه، فينبغي أن يكون قلب الإنسان قلبًا جديرًا بنزول الملائكة عليه. إنّ النزول لا معنى له غير هذا. فالقضية هي أن ليلة القدر هي ليلة الإنسان الكامل"[1].

ثالثًا: أهداف الإمامة على المستوى الإنساني: الحضور والفاعلية

ظهر ممّا تقدّم أنّ الرؤية الإمامية حول شخص الإمام وهي رؤية نابعة من تأمل مفهوم الإمامة في القرآن الكريم، تُفيد أنّ الإمامة قبل أن تكون حركة اجتماعية، هي ضرورة وجود لشخص إنساني كامل في عالم الإمكان، وهنا نفرّق بين أمرين أساسيين: الأول، هو ضرورة الإمام من باب ضرورة الحضور والظهور، والثاني، هو ضرورة الإمام من باب ضرورة الوجود التكويني له

1 - مطهري، الفكر الإسلامي وعلوم القرآن، ص 85.

بحسب ما تقتضيه هندسة الوجود الإلهي، والفكر الإمامي يعتبر أنّ الضرورة التكوينية من باب ضرورة وجود الإنسان الكامل هي الأصل، وأنّ قضية الحضور هي فرع وتابعة لمستلزمات إنسانية واجتماعية كما سنوضحها لاحقًا.

وعليه، فالغيبة أو الاحتجاب ليس خروجًا عن أصل ضرورة الإمامة كما يمُكن أن يُتوهّم، وكما ذكره أبو حامد الغزالي عند مناقشته بعض فرق الشيعة، من أنه لا فرق بين الموت والغَيْبة، حيث قال : "الصّواب الاعتراف بالحاجة إلى المُعلم، وأنه لا بدّ وأن يكون المُعلم معصومًا، ولكن معلمنا المعصوم هو محمد ﷺ فإذا قالوا: هو ميّت فنقول: ومُعلمكم غائب، فإذا قالوا: مُعلمنا قد علّم الدعاة وبثهم في البلاد، وهو ينتظر مراجعتهم إن اختلفوا أو أشكل عليهم مشكل فنقول: ومُعلمنا قد علّم الدعاة وبثهم في البلاد وأكمل التعليم إذ قال الله تعالى:﴿**الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا**﴾[المائدة:3]، وبعد كمال التعليم لا يضرّ موتُ المُعلم كما لا تضرُّ غيبته."[1]

حيث يظهر من كلامه هذا، عدم التفريق بين الغَيْبة والموت لجهة الوظيفة الاجتماعية فقط، وأما لو التفت إلى القول بالضرورة التكوينية لحضور الإنسان الكامل المعصوم، فلا يقع في هذا التهافت. وكيف كان، يبقى السؤال عن الوظيفة الاجتماعية مطروحًا أيضًا، وأنّ حضور الإمامة والإمام في حياة البشر من أي سنخ هو؟ ففي هذا المجال نجد أنّ الفكر الإمامي القرآني يختلف عن غيره، حيث نجد في بعض كتب المتكلمين من غير الإمامية أنهم يرون الإمامة ليست سوى قيادة ورئاسة عامة فقط، وهو ظاهر بحصرها ببُعدها التنظيمي الاجتماعي لتحقيق العدالة الاجتماعية على أبعد تقدي.

ولذا لم يشترطوا الكثير من الشروط في شخصية الإمام عندهم. بخلاف الإمامية الذين نظروا لحضور الإمام وفاعليته بين الناس نظرة أعمق، تتجلّى في قضية تحقيق المدينة الفاضلة المهدوية، في كل مستويات الإنسانية، من العدالة الاجتماعية إلى العدالة القيمية والاعتقادية والفكرية، فالمقصود من الحضور ليس بناء "مواطنة إسلامية"، بل المُراد هو بناء الإنسان في

1 - الغزالي، المنقذ من الضلال، ص 116.

جميع مستوياته، وهذا يتطلب أن يكون الإمام والقائد عالمًا ومحيطًا وواصلاً إلى قرب الله تعالى، بحيث يتعرّف إلى المقامات المعنوية والإلهية التي لا بدّ للبشر من سلوكها، ثم ينتقل بعد ذلك إلى المجتمع لهداية الناس إلى قِمم الإنسانية، وبعبارة أخرى، "العمل في الدنيا، يكون عملاً للآخرة أيضًا، فالدنيا مرتبة من العوالم المتصلة ببعضها، وتحقيق العدالة والقسط فيها غاية، قَال اللَّهُ سُبْحانَهُ وتعالىٰ: ﴿**لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ**﴾[الحديد: 25].

ولكن هذه الغاية، ليست غاية أرضية فقط، بل هي غاية في طول وعلى مسار غاية الطهارة والتزكية لقُلوب البشر، وهي غاية العبودية، قَال اللَّهُ جَلَّ و عَلاَ: ﴿**وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ**﴾[الذاريات:56]. إنّ تحقيق الأرض الطيبة، هو ككلمة طيبة، أصلها أرضي ثابت وفطري، ولكنها مُتصلة بالسماء.

إنّ بركات الأرض تخرج بالإيمان والتقوى، ومن دون الإيمان سترتدُّ عليهم قاحلة، وسيضعُف نسلهم، وتجفّ أرضهم، فالسماء والأرض عبادٌ مطيعون لله، قَالَ اللَّهُ جَلّ في عُلاه: ﴿**ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ**﴾[فصّلت:11]، وهي ذات روح عابدة، لا تمكّن الإنسان من نفسها إلا بعدل منه، ولذا أخرجت الأرض بركاتها للمستقيمين على الطريقة، قَالَ سُبْحَانَهُ وتَعَالىٰ: ﴿**وَأَنْ لَوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقًا**﴾[الجن:16]، وقَالَ جَلَّ في عُلاه: ﴿**وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ**﴾[المائدة:66]"[1].

رابعًا: الغيبة احتجاب الإمام عن الأمة أم احْتجاب الأمّة عن الإمام؟

تبيّن ممّا سبق عدم المُساوقة بين وجود الإمام وحضوره الظاهري، كما لا مُساوقة بين عدمه

1 - شمس الدين، المدينة الفاضلة المهدوية، ص 107.

وغيبته، فقد يكون الإمام موجودًا غائبًا، ولا معنى للقول: إنّ غيبته في قوة عدمه، بعدما ظهر أن وجوده في عالم الإمكان فرع لضرورة وجود إنسان كامل في كل زمان، ولكن يبقى السؤال عن سبب الغيبة والاحتجاب، أو حِكمته والغرض من ورائه.

وهنا لا بدّ من التفصيل بين أمرين، الأول، هو كون غيبته نتيجة فَقْد أسباب الحضور الذي به تكون تمام المنفعة منه، والثاني، هو وجود غرض ومنفعة من غَيْبته بمعنى أنّ الاحتجاب أمر مطلوب في نفسه لتحصيل منفعة معينة.

وبعبارة أخرى، قد يُقال إنّ الغرض الأسمى والغاية القصوى تتحقق في حضور الإمام (عليه السلام) بين الناس وقيادتهم إلى ذروة قِمم الإنسانية، ولكن الانتفاع من هذا الحضور معلول لسلسلة من العِلل والأسباب، فمع فقْد إحْداها لا يتمّ للحضور منفعة، فيتحقّق الغياب وفُقدان المنفعة من حضوره، لفُقدان العِلّة، فيكون غيابه خاليًّا عن منفعة الحضور، ولكن لفَقْد السبب الراجع إلى الأمة مثلاً، كتقصيرها عن نصرته أو الالتزام بخططه وبرامجه، وتارة أخرى، نقول إنّ الغيبة نفسها أمر مطلوب وحالة مثالية يتطلبها تكامل البشرية، كأن يُقال إنّ من كمال البشرية احتجاب الإمام عنها، كي تستكمل على مستويات معينة بشكل مستقل مثلاً، فالفرض الأول، نُعبرّ عنه باحتجاب الأمة عن الإمام لتقصيرها في تحصيل غرض حضوره، والثاني، نعبرّ عنه باحتجاب الإمام عن الأمة لتكميلها بالنفع الراجع إليها من غيبته.

وهذا البحث يتطلب السّير فيما يُسمى (عِلل الغيبة)، والظاهر عند مراجعة كلمات الأعلام المستنبطة من النصوص الدينية المعتبرة، أنّ الوجه الأول هو الأظهر - أي احتجاب الأمة عن الإمام-، وإنْ كان اللائح من كلمات البعض احتمال أو التصريح بالوجه الثاني، فمن القائلين بحتمية كون الغيبة لأجل تقصير الأمة واحتجابها، ما ذكره المحقق الطوسي في غيبته حيث قال: "ووُجوده لُطف، وتصرّفه [لطف] آخر، وغيبته منّا."[1]

حيث يصرّح بأن غَيبته سببها الأمة لا نفسه هو، أو ما يقتضيه نفس كونه إمامًا، وهذا ما صرّح

1 - المحقق الطوسي، تجريد الاعتقاد، ص221 .

به أيضًا العلامة الحلّي حيث قال: "لُطف الإمامة يتمّ بأمور: (منها) ما يجب على الله تعالى وهو خلق الإمام وتمكينه بالقدرة والعِلم والنّص عليه باسمه ونسبه، وهذا قد فعله الله تعالى. (ومنها) ما يجب على الإمام وهو تحمله للإمامة وقبوله لها، وهذا قد فعله الإمام. (ومنها) ما يجب على الرّعية وهو مساعدته والنُّصرة له وقبول أوامره وامتثال قوله، وهذا لم تفعله الرّعية، فكان منع اللطف الكامل منهم، لا مِنَ الله تعالى ولا مِنَ الإمام"[1].

أما الوجه الثاني، للغَيبة وهو – احتجاب الإمام لمصلحة في الغيبة نفسها- فقد احتمله بعضهم، ولكن وضعوا هذا الاحتمال بصيغة أنّ الغَيبة سرّ من أسرار الله تعالى، لم يطلع عليها أحد، وقد جاء في هذا المعنى بعض النصوص، منها ما نقله الصدوق في "كمال الدين وتمام النعمة": «حَدَّثَنَا عَبْدُ الْوَاحِدِ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ عُبْدُوسٍ الْعَطَّارُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ حَدَّثَنِي عَلِيُّ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ قُتَيْبَةَ النَّيْسَابُورِيُّ قَالَ: حَدَّثَنَا حَمْدَانُ بْنُ سُلَيْمَانَ النَّيْسَابُورِيُّ قَالَ حَدَّثَنِي أَحْمَدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ جَعْفَرٍ الْمَدَائِنِيُّ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْفَضْلِ الْهَاشِمِيِّ قَالَ: سَمِعْتُ الصَّادِقَ جَعْفَرَ بْنَ مُحَمَّدٍ عليه السلام يَقُولُ إِنَّ لِصَاحِبِ هَذَا الْأَمْرِ غَيْبَةً لَا بُدَّ مِنْهَا يَرْتَابُ فِيهَا كُلُّ مُبْطِلٍ، فَقُلْتُ: وَلِمَ جُعِلْتُ فِدَاكَ، قَالَ لِأَمْرٍ لَمْ يُؤْذَنْ لَنَا فِي كَشْفِهِ لَكُمْ، قُلْتُ فَمَا وَجْهُ الْحِكْمَةِ فِي غَيْبَتِهِ، قَالَ: وَجْهُ الْحِكْمَةِ فِي غَيْبَتِهِ وَجْهُ الْحِكْمَةِ فِي غَيْبَاتِ مَنْ تَقَدَّمَهُ مِنْ حُجَجِ اللَّهِ تَعَالَى ذِكْرُهُ، إِنَّ وَجْهَ الْحِكْمَةِ فِي ذَلِكَ لَا يَنْكَشِفُ إِلَّا بَعْدَ ظُهُورِهِ كَمَا لَمْ يَنْكَشِفْ وَجْهُ الْحِكْمَةِ فِيمَا أَتَاهُ الْخَضِرُ عليه السلام، مِنْ خَرْقِ السَّفِينَةِ وَ قَتْلِ الْغُلَامِ وَ إِقَامَةِ الْجِدَارِ لِمُوسَى عليه السلام، إِلَى وَقْتِ افْتِرَاقِهِمَا يَا ابْنَ الْفَضْلِ، إِنَّ هَذَا الْأَمْرَ أَمْرٌ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ تَعَالَى، وَسِرٌّ مِنْ سِرِّ اللَّهِ، وَغَيْبٌ مِنْ غَيْبِ اللَّهِ، وَمَتَى عَلِمْنَا أَنَّهُ عَزَّ وَجَلَّ حَكِيمٌ، صَدَّقْنَا بِأَنَّ أَفْعَالَهُ كُلَّهَا حِكْمَةٌ وَإِنْ كَانَ وَجْهُهَا غَيْرَ مُنْكَشِفٍ»[2].

أخيرًا، بعد أن اتّضحت حقيقة الإمامة السارية في جهتي الحضور والاحتجاب، تأتي قضية الانتظار أيضًا، كامتداد لبناء النفوس الإنسانية في ظرف الغياب، حيث مُدح هذا الانتظار بما يمتلك من أمل مدفون في فطرة البشر، ولذا، فإنّ توجُّه النفوس إلى الأمل الموعود وانتظاره هو من مقتضيات فطرتهم التي تشكّل أحد عوامل تربيتهم، وهذا ممّا لا يخفى أنه أحد الأبعاد

1 - العلامة الحلي، كشف المراد في شرح تجريد الاعتقاد، ص 492 .

2 - الشيخ الصدوق، كمال الدين وتمام النعمة، ج2، ص 479 .

التربوية في علاقة المأموم بالإمام، وبعبارة أخرى، "لم يكن الأمل يومًا أمرًا هامشيًا في حياة البشر، فالإنسان مهما أحاطت به الشدائد، يبقى في داخله شُعاع يجعله يعلّق آماله على نهاية سعيدة أو مُرضية، ولذا، عدّ بعض الحكماء اليأسَ والكآبة من الأمراض النفسية التي لا بدّ من علاجها، وكأن الرؤية المُعتمة للنهايات، هي أحد الأمور التي ينفر منها الإنسان، والتي تُعبّر عن خروج عن الطبيعة المستقيمة والصحيّة، كما يكون الإحساس بالمُرورة عند تذوُّق العسل أمرًا مَرَضيًّا، وخروج عن الذائقة المستقيمة، ولكن في الوقت نفسه، ألا يُعدّ "خيال" الأمل وأسطوريته وعدم واقعيته نوعًا من الكذب الذي لا يُلغي الكآبة، ولا يُحقق الأمل عند فاقده؟ هل يَقنع فاقد الأمل بوَهْم الأمل؟ حتمًا لا، لأن الأمل الموهوم لا يقلّ عن عدم الأمل، كما أنّ من أشبع نفسه بأوهام الأكل والشرب، لا يصبح شبعانًا مُرتويًّا.

فالأمل الذي تصبو إليه النفس، هو أمل مقرون بالواقعية، وليس أملاً أسطوريًا، كاذبًا، هذه هي حقيقة النفس، في أحد ميولها الجبلّية، ولا نتكلّم فقط عن أمل نهائي شامل لحياة الإنسان والبشرية، بل حتى الآمال الجزئية، هي عنصر أساسي في وجدان الإنسان، فالأمل بالارتواء أمر ضروري لحركة العطشان، والأمل بالنَجاة هو أحد أسباب سعي المأزوم أو الغريق لأن يتحرك، وكذا أمل الإنسان من حيث هو إنسان – لا من حيث هو جائع أو غريق- بل الإنسان في إنسانيته، له أمل وراء جزئيات حياته اليومية، أمل بأن يخلو عالمه الذي يعيش فيه من ضيق والمآسي ومن الظلم والجور"[1].

خاتمة

يظهر ممّا سبق، أنّ علاج الإشكالية الأساسية التي انطلق منها البحث، وهي إشكالية الإمامة التي ينظّر لها الفكر الإمامي، والتي تمتد إلى حالتي الظهور والغيبة، الحضور والاحتجاب، حيث يُقال: ما الفرق بين عدم الإمام وبين غيبته؟

وكان البحث السّابق، إعادة تعريف وتبيين لجوهر الإمامة في الفكر الشيعي، حيث يكون إثبات

1 - شمس الدين، المدينة الفاضلة، ص 96 - 97 .

الإمام ووجوده نابعًا من ضرورة فلسفية حكيمة وقرآنية، حيث نجد أنّ الإمامة تنبع من ضرورة تكوينية لا يستقيم بدونها هندسة الوجود، وهي ضرورة وجود الإنسان الكامل في كل زمان، وأن الوجود البشري لا يكون محلّ عناية إلهية، إلا بوجود الإنسان الكامل.

فهذا هو المنطلق الأساسي لفكرة الإمامة، ويتفرع عليها فروعات متعدّدة، منها أنّ حضور الإمام بين ظهراني الناس بشكل منكشف يُحقّق لهم العدالة الاجتماعية، بل العدالة الإنسانية بجميع مستوياتها، ولكن بشرطها وشروطها. وغَيبته لا تنقض أصل وجوده التكويني بل لها دواعٍ وأسرار، ولانتظاره أيضًا منافع وثمار.

ولذلك، من اقتصر في التنظير لفكرة الإمامة على ضرورتها الاجتماعية، سيقع في إشكالية عدم الفرق بين الغَيبة والموت، بين الاحتجاب والانعدام، ولكن الفكر الإمامي الذي يقبل الغَيبة والاحتجاب، مُنسجم مع طرحه حول الإمامة التي يجعل لأُفق الوجود، امتدادًا أوْسعَ من الحضور الاجتماعي نفسه، كما تقدّم تفصيله..

المصادر والمراجع

القرآن الكريم

- الحلي، الحسن بن يوسف ابن المطهر، كشف المراد في شرح تجريد الاعتقاد، قم المقدسة: جامعة المدرسين، 1417هـ.

- شمس الدين، حسين إبراهيم، المدينة الفاضلة المهدوية، بيروت: مركز براثا، ط1 - 2024.

- الشيرازي، صدر الدين محمد بن ابراهيم. تفسير القرآن الكريم. ، بيدار، قُم - إيران، ط- 1366 هـ.

- الصدوق، محمد بن علي، المعروف بابن بابويه، كمال الدين وتمام النعمة، طهرا: دار الكتب الإسلامية، ط- 1395هـ.

- طباطبائي، محمد حسين، الميزان في تفسير القرآن، بيروت: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات ط-2 1390 هـ.ق.

- الطوسي، نصير الدين محمد بن محمد، تجريد الاعتقاد، طهران: مكتب الإعلام الإسلامي، 1407هـ.

- الغزالي، أبو حامد محمد، المنقذ من الضلال، القاهرة: دار الكتب الحديثة، بدون تاريخ.

- مطهري، الشهيد مرتضى، الفكر الإسلامي وعلوم القرآن، بيروت: دار الإرشاد، ط - 2009م.